آراء واستنتاجات في بعض العوامل المحركة للتاريخ

د: نصرالدين البشير العربي جامعة المرقب – ليبيا

المقدمة

هذا البحث هو محاولة للوقوف على بعض الآراء والاســـتنتاجات لمجموعة من المؤرخين والفلا سفة الذين تناولوا هذا العلم بالدرا سة، أو كان لهم يد في صناعته و صولاً إلى الغاية المرجوة من هذا البحث، ونقف من خلاله على هدفنا ومبتغانا مستخدماً منهج الدراسة المقارنة التي تقارن بين تلك الآراء والنظريات ورأي الباحث المتوا ضع في صناعة التاريخ والعوامل المحركة له.

وقبل الولوج في صلب المو ضوع، لابد من القول أن تناول هذا الجانب سوف يؤدي إلى طرح تســـاؤلات كثيرة في العملية التاريخية ومنها: 1- هل للتاريخ معنى؟2- وما هي أهم العوامل المحركة للتاريخ؟ 3- وكم من الحوادث غير المتوقعة قد غيرت في مجرى التاريخ؟ 4- ما م صدر حركة التاريخ؟ 5- وكيف ننكر التاريخ ونحن نعيش التاريخ؟ 6- ومن ي صنع التاريخ؟ 7- ومن هم أبرز الفلاسفة والمؤرخين الذين تناولوا حركة التاريخ؟ 8- وهل العاملين القومي والديني هما من يحركان التاريخ؟ 9- ولماذا؟، وغيرها من الت ساؤلات التي سيجيب عليها الباحث في متن هذا البحث.

أولاً: العامل الاقتصادي المحرك للتاريخ.

أن افتراض وجود عوامل محركة للتاريخ يعني أن هناك تاريخ ســـوف يكتب له الخلود ويكون قدوة للأجيال التالية لتلك المرحلة، وعلى هذا يجب على المؤرخ أن يكون دقيقا وشمولياً في تحديد العوامل المحركة للمرحلة التاريخية مادية، ومعنوية، وروحية، وعقائدية، وفكرية تمثلت في أمة بأكملها، أم في فرد يمثل شخصية أمة معينة بصرف النظر عن قوميتها بمجتمع، وهذه الدراســـة لا تتوقف عن حدود آراء المنظرين والمؤرخين والاكتفاء بتتبع ما يقولون في عزو تلك المراحل التاريخية إلى عوامل كانوا ينظرون إليها من منظور شخصي، أو م صلحة معينة بما يترتب عليها خدمة اتجاه معين في الـسيا سة، أو الاقتصاد، أو إلى آخر ما هناك مما له علاقة بحركة التاريخ، بل حاولنا إعطاء وجهة نظر متواضعة في هذا الإطار.

إن المؤرخ يجب أن يضع أمامه المسؤولية الأخلاقية قبل كل شيء نظراً لما يترتب على ذلك من نتائج في الحكم التاريخي على مرحلة معينة، أو أحداث أدت إلى تغيرات جذرية أنتجت حضارة إنسانية أدت إلى تغيرات جذرية في تلك الحضارة الإنسانية الجديدة.

وأما الجانب الشمولي الذي نقصده، فإن النظرة التاريخية العابرة لا تكفي لأن تكون حكماً مقنعاً لانتشار حضارة وولادة حضارة أخرى، فكثيراً ما نقرأ عن أحداث لمعارك عسكرية أثبتها مؤرخون واستغرقت منهم جهد سنين، لا تغني الباحث في التاريخ كثيراً ولا قليلاً، ذلك أنها مجرد سرد لحوادث وقعت، وقد خلت من عواملها المحركة لها، وبالتالي فإنها في نتائجها تفتقد إلى المغزى والعبرة والحكمة التي يجب أن نقف عليها، وهذا ما أغفله كثير من المؤرخين، ولكن استدركه فلاسفة التاريخ، حيث يطالعنا **ابن خلدون** بقوله:" اعلم أن فن التاريخ عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحياد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل"[1].

لقد تلافى **ابن خلدون** ما كان يحدث من نقص وقصور في طبيعة التاريخ لدى بعض المؤرخين عندما استدرك على متقدميه الأسس العامة في كتابة التاريخ وتدوينه، ذلك أن **ابن خلدون** هو عالم اجتماعي وفيلسوف ومؤرخ، لذلك أعطى التاريخ أهمية اجتماعية وفلسفية، وكذلك المرحلة التي عاش فيها وعاصرها كانت قد أعطته خبرة في الحكم التاريخي، وذلك لما شهدت من صراعات وتقلبات سياسية واجتماعية وأحداث كانت تُجرى أمام عينيه ويرى عواملها ومتغيراتها.

---

[1] – عبدالرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، منشورات مؤسسة الإعلمي للمطبوعات، بيروت، 2001م، ص9.

من هنا يتضح لنا أن **ابن خلدون** وعى أهم العناصر الضرورية في حركة التاريخ ولم يعول على العوامل أو الأحداث التفسيرية، وهنا يمكن أن نربط بين فكر ابن خلدون في تركيزه على الجانب الاجتماعي وفكر وتفسير **ابودبوس** بقوله:"أن العلاقات الاجتماعية هي التي تصنع التاريخ وهي التي تدفعه إلى الأمام أو تشده إلى الخلف من منظور الهدف الذي نسعى إليه"[2]، حيث أن العامل الاجتماعي يضم تحت لوائه أسبابا كثيرة شكلت دعائم هذا العامل ومنحته القوة والخصائص، ما كان له القدرة على التحكم في حركة التاريخ وتغيير مجراه وفق المشيئة الاجتماعية، ذلك أن المجتمع هو الوعاء التاريخي الكبير الذي يمكن أن يستوعب كل الأحداث، فتنصهر فيه وتذوب ثم يخرجها بشكل جديد ينا سب المرحلة التاريخية التي تفرضها الرؤية الاجتماعية على حركة الزمن مكونة مرحلة تاريخية جديدة، ويمكن أن نقف على شواهد تاريخية تؤيد ما ذهبنا إليه، إذ أن كتابات **فولتير** وهو الأديب والمؤرخ للثورة الفرنسية فيما بعد، عندما كانت الـ سلطة الملكية المطلقة تبدو في تلك الأيام، وكأنها في أوجها غير أن القوى التي أوجدت هذا النظام السياسي ودعمته كانت قد بدأت تتفكك وتنحل داخل الجسم الاجتماعي وقد قضى فولتير نحبه قبل عشر سنوات من انفجار الثورة[3].

إن حركة التاريخ ضمن عواملها المحركة لها تكون بعيدة المشاهدة في حينها، وذلك بسبب الحركة البطيئة للتاريخ، لأنه لا يمكن أن نلاحظ العناصر التي تؤدي إلى تغيير معين على ساحة جغرافية ضمن مرحلة تاريخية إلا بعد مضي الوقت والزمن، لأن انقضاء الزمن يمنحنا القدرة والسيطرة على العوامل المؤثرة في مرحلة معينة، فيمكن بعد ذلك دراستها بدقة، ولكننا نقول إن الذين يصنعون النظريات يمكن لهم أن يتنبؤوا بما يمكن أن يحدث على ضوء مجريات المجتمع ومعطياته، وفي ذلك يقول **ميكافلي**[4]:" ولما كان من المستحيل في رأي

---

2 – رجب أبودبوس، ثأر اجتماعي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 2001م، ص183– 184.

3 – أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، دار الثقافة، بيروت، د. ت، ص115.

4 – ولد نيقولا مكيافيلي من عائلة عريقة عام 1469م في مدينة فلورنسا الإيطالية،وخلال نشأته في هذه المدينة قدر لمكيافيلي أن يشهد تحولات أساسية في تركيبة النظام السياسي في فلورنسا. فقد انتقلت السلطة من عائلة مديتشي إلى سافونارولا، رجل الدين المستبد الذي حكم فلورنسا لمدة ثلاث سنوات سقط على إثرها فاسحا المجال أمام قيام نظام جمهوري دام من عام 1498 حتى عام 1512م حيث عادت أسرة مدبتشي للحكم. للمزيد انظر: عبدالقادر تومي، أعلام الفلسفة الغربية في العصر الحديث، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص13.

الإبقاء على التوازن قائماً بـ شكل رائع يـ ضمن ا ستمرار أن يدرس احتمال قيامها بدور أكثر كرما و شرفا ويجعل منها في حالة اضطرارها إلى التوسع بدافع الضرورة دولة قوية تستطيع الحفاظ على ما امتلكته"[5]، قد يبدو التناقض واضـــحا في هذا النص، غير أن المتتبع لآراء وأفكار **ميكافلي** لا يرى تناقضا، وفق ما يؤمن به هذا الفيلسوف، لاسيما في كتابه (الأمير).

إن **ميكافلي** هنا يحاول أن يكون معلماً لمن يريد أن يقيم جمهورية يـ ضمن لها ا ستمرارها بدور أكثر – كرماً وشـــرفاً– وفق رؤيته ثم يفترض توســـعها بدافع الضـــرورة لتكون قوية وتحافظ على ما امتلكته بتلك القوة، والضـــرورة لا تكون قهر القوي للضـــعيف بما امتلك من و سائل القوة القاهرة، وإنما تكمن الضرورة في الحتمية التاريخية بما يمكن أن يخرج عن فكر معين يشكل إجماعاً إنسانياً على قبول تلك الفكرة واعتناقها وبذل التضحية من أجلها ومن أجل تحقيقها، إذ أن بعض النظريات الأخرى تختلف عنه وتتخذ بعض الحلول لم شاكل الإن سانية؛ إذن من هنا يشق الطريق للبشرية ففي جانب آخر يقول **ميكافلي**:" اتبعوني فليس ثمة سور أو حاجز يقف في طريقنا، وإنما هناك قوات م سلحة تواجه قوات م سلحة أي ضاً، ونحن في حالة التكافؤ معهم في البـ سالة، ولكننا نتفوق عليهم في مو ضوع الـ ضرورة الذي هو آخر الأ سلحة وأحـ سنها"[6]. والـ ضرورة تكون آخر الاختيارات بعد فـ شل كل التجارب الـ سابقة، ونحن هنا لا نطلق القول جزافاً وإنما بعد أن خبر العالم جميع النظريات و عانى من جرائها ألوان الآلام والعذاب ودفع ثمن ذلك تضحية من دمه وقوت يومه وخبز أطفاله وهو ينتظر النتائج، فقد بات على يقين بأن الجانب المادي كمحرك لعجلة التاريخ ليس له ما يبرره على أرض الواقع، لأنه يرتبط بعوامل أخرى هي أكثر منه تأثيراً وأشد قوة في صناعة التاريخ وفي و ضع عجلته في مسارها الصحيح".

ويقول **توينبي** "ولا حاجة إلى القول أن الاقتصاد في العالم الحديث، يرتبط بالسيا سة أكثر مما كان يفعل من قبل، وتظهر تجربة السوق الأوروبية المشتركة أن التوحيد الاقتصادي لا يمكن

---

5 – نيقولو ميكافيلي، مطارحات ميكافيلي، تعريب خيري حماد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982م، ص239.

6 – نيقولا ميكافلي، مطارحات ميكافلي، مرجع سابق، ص653.

المضي فيه بعيداً هذه الأيام دون قدر من التوحيد السياسي يمسكه ويثبته من الوقوع"[7]، وهذا مؤشر واضح على ضعف العامل الاقتصادي في صناعة التاريخ، أن يكون هو القوة المحركة لعوامله، لذلك أ ضاف إليه **توينبي**[8] العامل الـ سيا سي كي يكون عونا له حتى ي شكل جزئية صغيرة في هذه الدورة الهائلة للمرحلة التاريخية، لأن العامل السياسي إنما هو أساسا نابع من وســـط اجتماعي، وعلى هذا فإن العمود الفقري في الدورة التاريخية، أو العوامل المحركة لها هو العامل الاجتماعي، ومن جانب آخر فإن الاتجاه الرأسمالي الذي يستند على أقلية اجتماعية – ولك أن ت سميها ما ت شاء – لا ي ستطيع الا ستمرار وحده، وينفرد في حركة التاريخ بعد أن ا ستغنى عن الغالبية العظمى من المجتمع التي ت شكل بطريقة أو بأخرى تلك العجلة التاريخية بدورتها المعهودة، أو لنقل أنها الصانع الحقيقي والعامل المحرك الذي يؤدي إلى التغيير، حيث يقول **أرنست**:" في أيامنا هذه لا يستطيع النظام الاجتماعي الاقتصادي الرأسمالي أن يبقى على قيد الحياة دون تدخل دائم متزايد من الدولة"[9]، والـ سبب في ذلك هو الفجوة التي تف صل بين أصـــحاب رأس المال والطبقة الكادحة، ولما كانت الدولة وأدواتها في النظام الرأســـمالي هي تحالف مجموعة شركات تجارية جمع بينها م صلحة م شتركة، هي الربح المحض ب صرف النظر عن الأحقية والعدالة الاجتماعية، أدى ذلك إلى تشـــكيل الحزب الســـياســـي الذي يتولى الســـلطة ويمتلك أدوات الحكم بالطريقة التي أشـــرنا إليها، ولما كانت الغاية تبرر الوســـيلة، والـ سلطة هي عبارة عن اتحاد مجموعة شركات ا ستولت على الـ سلطة تحت ا سم جديد هو (الحزب) فمن الطبيعي أن تتدخل الدولة كلما حلت الأزمات بتلك الـ شركات، وتدخل الدولة هنا يأتي أيضا لمصلحة أفراد على حساب المجتمع الذي يفترض أن يكون العكس هو الصحيح، إذ ليس من المنطق الاجتماعي أو القانوني أو الأخلاقي أن تكون التضحية من السواد الأعظم من المجتمع لمصلحة أقلية مستغلة تستخدم كل أنواع المحرمات في سبيل تحقيق مصالحها، لاسيما

---

7 – ارنولد توينبي، الوحدة العربية آتية، نقله إلى العربية عمر الديراوي، دار الأدب، بيروت، 1979م، ص178.

8 – ولد أرنولد توينبي في لندن عام 1889م ، ودرس اليونانية واللاتينية في أكسفورد، ومن أهم أعماله :"دراسة التاريخ في 12 مجلداً، والحضارة في الميزان، وتاريخ البشرية"، وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين. للمزيد انظر وكيبديا للمعلومات، البحث في كلمة توينبي.

9 – مانتل أرنست، الرد الاشتراكي على التحدي الأمريكي، ترجمة نعيم الخوري، دار دمشق، دمشق، د. ت، ص59.

في الأنظمة الرأسمالية، وخاصة عندما يضرب العمال عن العمل مثلا مما يستدعي استخدام أساليب رخيصة تحت عناوين إنسانية :"وهكذا تختفي المشكلة الملموسة التي يثيرها صراع مصـــالح في نظام اقتصـــادي محدد، تختفي في غماره الأماني الطيبة، ولكن الأطراف ذات المصلحة تثير القضية من درجة من الحدة تجعل من المستحيل تماماً أن يفيد المرء نفسه"[10]، فهنا تختفي المشكلة الحقيقية في عملية الصراع الاجتماعي الطبقي بين أقلية ومالكة لوسائل الإنتاج، وبين أغلبية محكومة من قبل تلك الأقلية، وهنا يبرز دور العامل الاجتماعي في قدرته على إيجاد المتغيرات الإيجابية لمصلحة المجتمع في كتابة مرحلة تاريخية جديدة لا تخرج عن نطاق العامل الاجتماعي ودوره المؤثر في حركة التاريخ، ونحن من خلال دراســـتنا هذه واستعراضنا للنظريات والآراء والأفكار التي خرج بها مفكرون ومؤرخون وفلاسفة حول الأولوية المحركة للتاريخ اتضـــح لنا الخطأ الذي وقع به **ماركس** وزميله **انجلز** فيما ذهبنا إليه من أن العامل المادي الذي يضم وسائل الإنتاج وتوزيع السلع هو أساس حركة التاريخ، وقد أغفل العامل الاجتماعي الذي نحاول استدراكه وتصحيح ذلك الخطأ التاريخي الذي نقف عليه من خلال هذا النص الذي يقول:"كانت أول مســـاهمة مهمة **لماركس** تبعا لما يقوله زميله **فريدرك انجلز** هي ملاحظته أن الكائنات الآدمية لابد أن تأكل وتشرب وتحصل على مسكن وملبس قبل أن تستطيع الاهتمام بالسياسة والعلم والدين والفن، وهكذا فإن مرحلة تقدم إنتاج وتبادل السلع وتنظيم المجتمع الناشئ عن هذه المرحلة هما اللذان يحددان في نهاية المطاف التطورات السياسية والاجتماعية والحضارية"[11].

فبعد أن أقر **ماركس** بالوجود الاجتماعي الذي عبر عنه (بالكائنات الآدمية) وحاجاتها إلى وسائل العيش رجع إلى العامل المادي وأعطاه مكان الصدارة في حركة التاريخ، لأنه جعل تقدم الإنتاج وتبادل السلع هو الذي يؤثر على الدورة الحضارية قبل العامل الاجتماعي، غير أن وضع الأمور في نصابها الصحيح وضمن مسارها الحقيقي، يحتم علينا التأكيد بأن العلوم والفنون والمعرفة والســـياســـة وزيادة الإنتاج وتبادل الســـلع، – يفهم رأي الباحث من خلال

---

10 – لينين، الرومانسية الاقتصادية، ترجمة لطفي فطيم، دار ابن خلدون، بيروت، 1975م، ص174.

11 – ادوارم بيرتز، النظريات السياسية في العالم المعاصر، ترجمة عبدالكريم أحمد، دار الأدب، بيروت، 1988م،ص115.

السياق– هي ناتج أساسي عن التجمع الإنساني الذي تعبر عنها النظريات الاجتماعية التي ينتج عنها جميع ما تقدم في عملية الصـــراع الإيجابي للعامل الاجتماعي، الذي عبر عنه **ماركس** بالجدل المادي الذي استمده من الفيلسوف الألماني **هيجل**، ولكن هذا الصراع لم يحدد عناصره، إلا بالقضية المطروحة ونقيضها حتى ترتقي نحو الأمثل، بينما يستبعد العناصر غير المادية وينســـب ذلك إلى الطبيعة ويضـــعف العامل الميتافيزيقي ولا يرى له أي دور حتى أنه ينفيه تماما، بينما نعلم أن العامل الديني في حياة الإنســـان مهم إلى درجة كبيرة، لأنه يغذي الروح ويرفع مستوى الشعور ويكون مدعاة للتأمل والخلق والإبداع، لهذا جعلناه من وجهة نظرنا أحد العوامل المحركة للتاريخ.

وباجتماع هذه العوامل لدى المجتمع من فكر وثقافة ودين وما إلى هنالك من عناصر أخرى تحرك المجتمع وتضعه في إطاره الصحيح في حركة التاريخ كعامل أساسي يخلق العوامل السياسية والإدارية والإنتاجية وصولاً إلى الحضارة.

وصفوة القول لا يمكن تفريغ الإنسان من وعيه الاجتماعي وتهميش دوره السياسي، كي يسود العامل الاقتصادي الذي هو أصلا من صناعة الإنسان، ومع هذا فإننا نرى **مونتسيكو** في القرن الثامن عشر أقرب إلى الصواب من غيره في العوامل المحركة للتاريخ، حيث نرى أنه لم يرجح حركة التاريخ إلى عامل واحد يتحكم بالمرحلة التاريخية، ولو أنه فصل بينها، ونظر إلى إدارة الحكم على أنها تنمو وتتطور، وقد نظر إلى المبدأ على أنه أحد العوامل المهمة في حركة التاريخ وفق ســـمات ومعطيات ومؤثرات خارجية، حيث كانت نظريته:" تحث على دراسة الواقع التاريخي العيني بكل تنوعه الحي – فهو يتصور أشكال الحكم، ومؤسسات الدولة والقوانين، وكأنها ظواهر تنمو وتتطور بانتظام في المكان خاضعة للقوانين الجغرافية، في حين لا تســـتوقفه قوانين تحولها في الزمان"[12]. وهذا الرأي ناتج عن الانتقائية والاختيارات التي كان **مونتيسكو** يعول عليها كثيراً في فلسفته التاريخية، حيث يستمد شواهده من التاريخ القديم في مراحل مميزة ويجعلها مقياساً عاماً شاملاً إذا أعجبته التجربة التاريخية واقتنع بها.

12 – محمد فرحات، فلسفة الأنوار، دار الفرجاني، طرابلس، 1988م، ص51.

فالانتقاء لتجارب محددة ضـــمن وقائع تاريخية في مرحلة زمنية معينة يمكن أن يبنى عليه حكم غير صـــائب، حيث أن :" موقف **مونتســـكيو** من الحكم الجمهوري والملكي فهو أكثر تعقيداً، فلكي يميز بينهما وبين النظام الا ستبدادي يـ سميها كليهما – حكماً معتدلاً – والاعتدال صفة إيجابية في نظره كما نعرف، فهو يجد في الحكمين بعض الـ سمات التي تـ ستحق التأييد والتقدير. والانتقال من الأول إلى الثاني، أو من الثاني إلى الأول يهدد الدولة بأي خطر"[13]، فهو يؤمن بأن انتقال الحكم من النظام الملكي إلى الجمهوري أو العكس لا يهدد الدولة، فهذه النظرة نابعة من إيمانه بتعدد العوامل المحركة للتاريخ، لأن تعدد العوامل في رأيه يكون سبباً لتعدد أنواع الحكم في الدولة الواحدة، لذلك ينطلق في مفهومه لأدوات الحكم ومؤ سسات الدولة أنها تتطور ضمن قانون جغرافي خارج عن نطاق الزمن، غير أن الذي يتطور ضمن القوانين الجغرافية هي الحياة الاجتماعية، أو المجتمع وليســت أدوات الدولة ومؤســســاتها، لذلك فإن الجانب الجغرافي أو مواصـــفات البيئة مهمة في تطور المجتمع، مثل الأنهار والتربة والمواد الأولية، لأنها ذات تأثير على الإنتاج القومي، وهذا أمر متعلق بحياة البشـــرية منذ وجودها، ولكن كلما تقدمت الحضـــارة كلما ضـــعف أهمية العامل الجغرافي، إذ أنه:" مع تطور التاريخ يتغير تأثير الو سط الجغرافي في حياة المجتمع، فكلما أوغل المجتمع في الما ضي وكلما كانت قواه أضـــعف، كلما زادت تبعيته للطبيعة المحيطة به وهكذا مثلاً أثرت العوامل الطبيعية في تكاثف الناس القدماء على الأرض غالبا بالقرب من أحواض الأنهار"[14]، غير أن التطور الحضـــاري ضـــمن المرحلة التاريخية يؤدي إلى ضـــعف العامل الجغرافي وأثره في حركة التاريخ، ويمكن أن نبرهن على ذلك بمثال معا صر ألا وهو النهر الـ صناعي بليبيا، حيث أن التطور الـ تاريخي عبر الزمن أضـــعف علا قة المجتمع بالجغرافيا بمعنى أن مـ نابع النهر الصـــناعي كانت قبل أن تتحول إلى النهر الحالي، إنما هي مقصـــد المجتمع في تلك الواحات ومنابع المياه الجوفية في أعماق الـ صحراء في الجنوب الليبي، أما الآن فقد أ صبحت المـ سألة عكســـية تماما وكأن العامل الجغرافي هو الذي يســـعى وراء المجتمع للتطور التاريخي الذي

13 – المرجع السابق نفسه، ص52.

14 – بودوستيك وسيتيركين، المادية التاريخية، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م، ص17.

حدث بفضل نقل المياه من أعماق الصحراء إلى أواسط المجتمعات في المدن، وهذا يدلل على ضعف العامل الجغرافي كلما تطورت حركة التاريخ.

أننا من خلال هذا الطرح في هذه الدراســـة لا نريد أكثر من إعطاء فكرة مبســـطة حول النظريات العالمية والمنظرين والفلاســـفة الذين فســـروا التاريخ على حســـب معطيات معينة، نفسية، ومادية، واجتماعية، وفكرية، وثقافية، ونحاول أن نعرض لمعظمها بشكل مبسط ونقارن فيما بينها، وبين قراءتنا للمو ضوع، وكذلك لا يفهم من درا سة العوامل المحركة للتاريخ على أنها تتناول أحداث ما ضية في زمن معين، وإنما معرفة التاريخ على أنه واقع حي في الذاكرة الإن سانية من جانب، وليس مو ضوع الأحداث الما ضية، ومن جانب آخر يكون دليلاً تاريخياً يكشـــف عوامل المســـتقبل من خلال الوقوف على عوامله، وأثر هذه العوامل في الحضـــارة الإنسانية كما بينت بعض النظريات العالمية.

ثانياً – التاريخ والعامل الاجتماعي ودوره في حركة التاريخ :

إن مفهوم التاريخ بمعناه البســـيط هو دورة الحياة البشـــرية، وما يطرأ عليها من تغيرات وتبديلات نمواً وازدهاراً وحضـــارة تؤدي إلى الســـعادة والرخاء، أو ما يعتري الدورة من انتكاسات وتقهقر تؤدي إلى التراجع والبؤس والشقاء في مرحلة زمنية محددة عمادها الإنسان، وتجري في كل مجتمع دون ا ستثناء، وهذه هي حركة التاريخ إذ أن المقصود بحركة التاريخ، هي (حركة المجتمعات من خلال تفاعلات تقدمها، وازد هار ها، وتخلفها، ونكباتها، هذه المجتمعات تتحرك في كل لحظة، فهناك الأحداث أعمال الناس، السعي لإشباع الحاجات، إدارة التطوير والتغيير، وثمة أحداث فاصـــلة كالثورات مثلاً عندما تبتدئ بمرحلة جديدة، هذه الأحداث هي التي تحتكر في التعبير العام صـــفة تاريخية)[15]، لأنها جرت في مرحلة زمنية ما ضية وعبرت عنها وفق العوامل المحركة لتلك المرحلة التي عا شها الإن سان في مجتمع معين، إذ أن الفرد دون بقية أفراد المجتمع لا يمكن أن يصـــنع تاريخاً، والســـبب في ذلك أن المرحلة الزمنية، وحتى تأخذ الـ صفة التاريخية يجب أن تكون شمولية، بمعنى أن أثرها يجب أن يظهر على جميع أفراد المجتمع الذين عاشوا تلك المرحلة وما تعكس من تطورات بعد ذلك

15 – رجب أبودبوس، ثأر اجتماعي، مرجع سابق، ص24.

في الحياة العامة على الجوانب الاجتماعية والـ سيا سية والاقتـ صادية والعلمية والثقافية، تكون بمجملها مرحلة فكرية لها طابع يميزها، وانعكا سات الجانب الفكري على الحياة المادية، وبهذا يكون المجتمع قد اشترك في حركة التاريخ وصناعته وتحويل عجلة الحياة بالاتجاه الذي وضع أ سـ سه ذلك المجتمع بمجموع أفراده، لأن الفرد إذا كان بمعزل عن الآخرين فلن يكون مؤثراً، وبالتالي فإن نتائج تصرفاته ستبقى ضمن الإطار الشخصي، أو السيرة الذاتية له، وعلى هذا يمكن أن نتو صل إلى فكر بعض الباحثين والمفكرين لتأييد فكرة أن المحرك للتاريخ الإ سا ساني هو العامل الاجتماعي، لأن وجود الإ سان في تجمع بـ شري يعطيه القيمة الإ سانية والقيمة الاجتماعية، و هذا التجمع يمنح الفرد (كل فرد) نو عاً من القيمة الوجودية في مجتمعه، لأن الإ سان لا يمكن أن يقيم نف سه، وإنما تأتي هذه القيمة من خلال العامل الاجتماعي الذي ينمي روح الجماعة لدى الفرد مما يدفعه إلى التضـــحية من أجلها لما نشـــأ بين أفراد المجتمع من علاقات، وهذه التـ ضحية إنما تكون من أجل القـ ضايا الكبرى التي تحافظ على بنية المجتمع، وبهذا يكون العامل الاجتماعي قد حرك المؤثر في صـــناعة التاريخ، لذلك لا يمكن أن ينشـــأ تاريخ بعيداً عن العامل الاجتماعي، أي بعوامل فردية لأشخاص معينين لأن:" التفسير الفردي، مثلاً تفسير مرحلة الحكم الا ستبدادي، حيث كانت نزوات القادة والملوك تصنع التاريخ، ولكنه لا يف سر كل التاريخ، فإذا أردنا الو صول إلى تف سير حقيقي للتاريخ، وليس لمرحلة منه فقط، علينا أن نرجع إلى منشأ التاريخ وإلى العامل المستمر الموجود وراء المتغيرات كلها"[16].

وحتى يأخذ الحدث الـ صفة التاريخية، يجب أن لا يكون صادراً عن أ سباب فردية بعمل جماعي، مثل حاكم مـ ستبد يـ سخر المجتمع لمجد شخـ صي، فهذا لا يأخذ الـ صفة الـ شمولية من حيث حركة التاريخ ذلك أن مصلحة المجتمع تتناقض مع حدث من هذا النوع.

إن أهمية العامل الاجتماعي تكمن في خلقه لبقية العوامل ذلك أن الفرد ينحدر من أســـرة تربطها علاقات الأسرة فيما بينها وما يترتب على هذه العلاقة الأسرية بين الرجل وبين المرأة من جانب، وبين المرأة والرجل وبين بقية أفراد الأسرة من جانب آخر.

16 – نجاح صلاح الدين القابسي، التفسير الاجتماعي والتاريخ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1991م، ص7– 8.

هذه العلاقة في الاهتمام والتربية والسلوك والواجبات والحقوق والآداب العامة والأخلاق تكون نواة العامل الاجتماعي في المجتمع، ومع التقاء هذه العلاقات تتكون العلاقة الاجتماعية في المجتمع ومن أجل استمرار هذه العلاقات يترتب على ذلك عوامل أخرى مساعدة للمحافظة على بنية المجتمع فتنشأ العلاقات الاقتصادية من أجل متطلبات الحياة التي تفرض بدورها ضرورات مصادرها الاجتماعية، ولكنها تأخذ اتجاهات دينية وقانونية وسياسية من أجل تنظيم علاقة أفراد المجتمع فيما بينهم و تشكل نواة في حركة التاريخ كجزء من الحضارة الإنسانية، ومن هنا فإن العامل الاجتماعي أعطى التاريخ بعده الحقيقي في تكوين الحضارة." ولهذا صار ينظر إلى التاريخ بمعنى أقرب إلى الحضارة منه إلى معناه التقليدي، فالاجتماع لا يعني مجرد الالتقاء فحسب، بل يعني أيضاً الدخول في علاقة مع الآخرين، لأن الاجتماع وما ينشأ عنه من علاقات متنوعة، هو الذي يجعل وجود بقية العوامل ممكنة، فلا اقتصاد بدون اجماع إنساني، ولا سياسة ولا دين"[17].

- **لماذا العامل الاجتماعي؟.**

علمنا فيما مضى أثر العامل الاجتماعي ودوره في حركة التاريخ، ومع هذا نقول أن هذا العامل لا يلغي دور الفرد، لأن الفرد في المجتمع هو أساس هذا البناء، وهو بذلك جزء لا يتجزأ من المجتمع، والمجتمع بدوره يتشكل من مجموع الأفراد على اختلاف ميولهم وآرائهم واختصاصاتهم في العلم والمعرفة، وكذلك اختلافهم في القوى البدنية والملكة العقلية، وامتلاكاتهم المادية، لذلك نرى أن أوجه الاختلاف والتفاوت في المستويات والقدرات والملكات بين الأفراد، هي التي تمنح المجتمع قوته، لأنه ليس هنالك فرد واحد في المجتمع يمتلك جميع ما ذكرنا من مقومات.

فحاجة الأفراد إلى بعضهم في عملية تبادل المنافع المادية والمعنوية تؤدي بالضرورة إلى تقوية العلاقة وإذكاء روح الجماعة في التعاون، وهذا النوع من التبادل والتعاون ربما يكون لخدمة فردية، ولكن عندما يتعدد هذا النوع من الخدمة الفردية الذي يصب في مصلحة أفراد

17 – مجموعة باحثين، العامل الاجتماعي كمحرك للتاريخ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1991م، ص49.

المجتمع فإنه بال ضرورة أ صبح عملاً جماعياً يخرج عن فرديته إلى الم صلحة العامة، وبهذا تكون أوا صر العلاقات الاجتماعية قريبة من بع ضها وت شكل عملاً جماعياً قادراً على التغيير بفعل العامل الاجتماعي الذي ينتج عنه اسباباً أخرى سبق وأن أشرنا إليها فيما مضى. ومن ثم تنتقل هذه العلاقة وترتبط مع م صلحة مجتمع آخر ومن الأمة التي ينتمي إليها المجتمع الأول، أو إلى مجتمع آخر من أمة أخرى.

لذلك ندرك أن العامل الاجتماعي هو المحرك للتاريخ حيث :"يركز الفكر ال سيا سي للثورات في العالم على العامل الاجتماعي، كعامل محرك للتاريخ، وينظر قادتها باهتمام كبير إلى التكوينات الاجتماعية، وليس للتكوينات ال سيا سية، لأن التكوين الاجتماعي هو عامل أخطر في حركة التاريخ، ويبدأ التكوين الاجتماعي بالفرد، ثم الأ سرة، ثم الأمة، وأخيراً الإن سانية، وذلك هو التكوين الطبيعي"[18].

وتتوضح لنا فكرة العامل الاجتماعي بشكل جلي عندما نميز بين أساسيات العوامل وخصائصها وأولية كل عامل حسب أهميته من الناحية الفكرية والتجريبية، لأن القضايا الكبرى إنما تنطلق من الكليات العامة، ومنها تتفرع الجزئيات كعامل مساعد ينبع من تلك الكليات، ثم يعود لي صب فيها بعد أن يكمل دورته ثم يعود من جديد، وهذا منطق الأ شياء. ولنو ضح هذه النقطة ن ضرب مثلاً النظرية ال سيا سية التي تف سر التاريخ تف سيراً سيا سياً وفق تفكيرا أكاديميا مجرد عن المؤثرات الحقيقية في حركة التاريخ، لأن النظرية ال سيا سية إما تكون صادرة عن حزب سياسي معين، أو أنها صادرة عن مفكر ثم أخذ بها حزب، أو اتجاه سياسي وجعل منها برنامج عمل سياسي في محاولة إضفاء الشرعية التاريخية على هذه الفكرة، أو النظرية، ولأن هذه النظرية لا تشمل المجتمع، وإنما تعبر عن آراء أفراد قلائل، فإنها حتماً سوف تكون قا صرة على تلبية حاجات المجتمع، و سد النقص الحا صل في الجوانب المعرفية، وبالتالي فإنها لن يكون لها القدرة على تحريك العوامل المؤثرة في حركة التاريخ، مع إنها تتناوله في م سائل كبرى، ولكن تبقى الهوة عظيمة بين الوصف التاريخي، وبين العوامل المحركة، لأنها لا تستطيع أن تقدم أكثر من و صف للتاريخ وفق منظور أخلاقي معين، وعلى هذا فإنها تبتعد عن

18 – ميلود المهدبي، إبراهيم أبوخزام، الوجيز في القانون الدستوري، منشورات مكتبة طرابلس العلمية، طرابلس، 1996م، ص101.

الخلق ولإبداع وعن البناء أي ضاً، لذلك:" كان هدف **اي ستون** الأول هو أن يـ ضع حد للنظرية بو صفها تدريباً في التاريخ الفكري، وأن يحل محلها البحث في القيم ونمو المبادئ الكبرى التي تضفي على علم السياسة حياة ومعنى".[19]

ولا يمكن للمبادئ الكبرى أن تنمو ضمن نظرية سياسية ضيقة، تقتصر على مجموعة أفراد، لأن المبادئ الكبرى يشـــترك فيها جميع أبناء المجتمع، والذي يمكن أن يجمع هذه المبادئ هو النهر العظيم الذي تتفرع منه الجداول ويـ ستقي من فروعه جميع الأفراد، وهذا لا يتمثل إلا في العامل الاجتماعي بداية، وتنطلق العوامل الأخرى، على عكس ما ذهبت إليه بعض النظريات، لأن:" حركة التاريخ في خـ ضوعها للعامل الاقتـ صادي، تنـ شأ نتيجة صراع الإنسان، لكن هذا الصراع قد يتخذ طابع الصراع بين الإنسان والطبيعة، وقد يكون مع أمثاله، وعندما يخوض الإنسان صراعه ضد الطبيعة ويتخذ ذلك شكل العمل والإنتاج يفرض إشـــباع الحاجات، فإن التاريخ يســـتمر دون أزمة"[20]. ولهذا الاعتقاد بأن العامل الاقتصـــادي هو المحرك الأول للتاريخ يظهر وقوع بعض النظريات في الخطأ التاريخي، مما أدى بها للوقوع في الأزمة الحتمية التي لم تستطع أن تفعل أمامها شيئاً إلا الاستسلام، وبالتالي فقد وصـــلت إلى النهاية المتوقعة، حيث يرجع **هيجل** حركة التاريخ إلى فكرة الحاجة، وذهب **ماركس** إلى العامل الاقتصادي، وهذا ما يمكن اعتباره خطأ أدى إلى سوء فهم أفـ ضى إلى تلك النتيجة التي و صلت إليها النظرية الـ شيوعية بعد إن اعتمدت العامل الاقتـ صادي وتـ سيرها المادي وأهملت المجتمع والقومية والدين، وبهذا تكون قد التقت مع النظرية الرأســـمالية في أكثر من نقطة رغم العداء بينهما، إذ أن الرأســـمالية التي تطلق الحرية الفردية من أجل جمع المال لامتلاك و سائل الإنتاج وفق قوانين و ضعت للمحافظة على مصـــلحة أفراد أو طبقة من المجتمع إنما تعتنق المذهب المادي في حركة التاريخ بصـــورة أو بأخرى، وحتى أن ســـلمنا بالفكر الرأســـمالي حول ادعاءاته بأن تلك الحرية المطلقة إنما تـ صب في خدمة الإنسان والبشرية بتقديم الإبداع والاختراعات للو صول إلى

---

[19]– ادوارم بيرتز، السياسة في العالم المعاصر، ترجمة عبدالكريم أحمد، دار الادب، بيروت، 1988م، ص400.

[20] – إبراهيم أبوخزام، العوامل المحركة للتاريخ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1985م، ص44.

السعادة، ولكن هذه السعادة، إنما هي سعادة فئة أقلية على حساب المجتمع الإنساني، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الحقائق والوقائع التاريخية تدين هذه النظرية، بل وتصفها بالعار في مواقف كثيرة لما جلبته من كوارث على الإنسانية من خلال اعتناق الحرية المطلقة للفرد دون قيود أخلاقية، أو اجتماعية جعلت منها حرية مادية في أبشع صورها." هذا المذهب الذي جلبته معها الرأسمالية الأمريكية والشيوعية الشرقية، وقد دخل بعض اليابانيين هذه المعركة مسلحين بإنسانيتهم القائمة – على المسيحية والبوذية, ولا يمكننا أن نغض الطرف عن نتيجة نضالهم، ولكن كل منا الآن يبحث حوله ليجد أسلحة أكثر تأثيراً، إن إحدى نتائج المذهب المادي هي الأسلحة النووية، والشعب الياباني لا يمكنه أن ينسى أن أول القنابل الذرية استخدمت في تاريخ الإنسانية كانت تلك التي وقعت على بلادهم بأمر من الرئيس الأمريكي الذي أدى قسما واضعا يده على الكتاب المقدس"[21].

وهذا يفسر لنا مدى التدني الأخلاقي للنتائج التي أفرزتها تلك النظرية، إذ أنها لا تقيم أي اعتبار إنساني أو أخلاقي فيما يواجهها من مشكلات،[22] لذلك لجأت إلى المنطلقات النظرية التي بنيت عليها من أجل تحقيق الأهداف، ولما كان الهدف ماديا، فإنها عالجت المشكلة بالقوة المادية الناتجة عن الأسس والعوامل التي قامت عليها، وبذلك سببت في كارثة إنسانية لا مثيل لها، فلو كانت المنطلقات النظرية تستند إلى العامل الاجتماعي، لكانت المعالجة اعتمدت على الجوانب الأخلاقية والقيم السامية في حل المشكلات، وهذا ما أشرنا إليه في اعتماد بعض النظريات أسسا خاطئة أدت إلى سوء فهم في المعالجة، الأمر الذي ترتب عليه أخطاء تاريخية بحق الإنسانية.

فمن هنا نؤكد على أهمية العامل الاجتماعي في الحياة الإنسانية كمحرك للتاريخ ومن خلاله تصنع البشرية حضارتها، وكذلك تكمن أهمية العامل الاجتماعي فيما يحمله من فكر ومعرفة يتمثل في الإنسان، وهو مبدع العلوم والفنون والحضارة، حيث أن هذه الثوابت

---

21 – أحمد ولد الحسن، الدين وتحرير الشعوب قراءة في الكتاب الخضر، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1989م، ص50.

22 – جاك ليث، ولي مورتمر، أمريكا دولة تحكمها العصابات، ترجمة حبيب نحولي، دار الشرق الجديد، بيروت، 1954م، ص90-91.

المعرفية لذى الإنسان تسكن الوعي الجماعي في عملية تفاعل مستمر، ترتقي بالإنسان إلى مستوى إنسانيته في عملية تفكير والتأمل من أجل إيجاد الحلول للمشكلات على الصعيد الاجتماعي لمجتمع معين ثم تنطلق إلى البعد الإنســـاني، وبهذا يولد هذا العامل الاجتماعي في الدائرة الصغرى على مستوى المجتمع الذي يتكون من أفراد وأسر وقبائل، ثم يمتد إلى الأفق الأبعد وهو الدائرة الكبرى على مستوى الأمة انطلاقا إلى الإنسانية، إضافة إلى العوامل الأخرى التي تعطي العامل الاجتماعي ركيزة أســـاســـية في القوة الدافعة لعجلة التاريخ والتي تتمثل في الدين والقومية.

ثالثاً – القومية عامل محرك للتاريخ:

قبل الدخول في التكوين القومي وما معنى القومية وكيف تشكلت وما هي عناصرها وما الذي يجمع بين أفراد القومية الواحدة، لابد أن نقف على تعريفها ونتخذه مرتكزاً أساسياً لفهم معنى القومية حيث أن القومية هي:" رابطة اجتماعية تربط جماعة بشـــرية بعضـــها ببعض. والرابطة التي تربط القوم الواحد، هي الشعور المشترك، واللغة الواحدة، والعقيدة الواحدة، والتاريخ والتراث المشترك، وهذه الرابطة الاجتماعية أساسها الدم، وهو الأصل الواحد، والانتماء والمصير المشترك والمصالح الواحدة، لذلك كانت العلاقة القومية، هي علاقة اجتماعية، أي علاقة الإنســـان بالتكوين الطبيعي الذي ينتمي إليه، والذي يبدأ من الأسرة، فالقبيلة، فالأمة، فالمجتمع الإنساني"[23]، اذاً فالقومية هي الرابطة التي تجمع قوما من البشـــر ضـــمن ســـياقات اجتماعية تقوم على صـــلات بين هؤلاء الناس عمادها فهم المصـــالح المشـــتركة لبعضـــهم البعض قائم على الاحترام لتلك الأســـس التي تجمع تلك العلاقات انطلاقا من الفهم المشترك إلى المصالح في وحدة المصير التي تعبر عن الوجود، ومعنى هذا أن تلك العلاقات هي علاقات دائمة تأخذ مكانة التقديس لدى القوم لأنها ترتبط بوجودها المصيري كأمة لها خصائصها وتمتاز عن غيرها من الأمم أو الأقوام بسبب تلك الخصـــائص التي قد تلتقي أو تتعارض مع مصـــالح الآخرين، لذلك فهي تحافظ على هذه

[23] – محمد الحضيري وآخرون، المعجم الجماهيري، ط3، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1425م، ص296-297.

البنية الاجتماعية التي ارتبط بها مصيرها ووحدت بينها عوامل كثيرة من أواصر علاقات الأصل والدم والأتحاد الاجتماعي الذي لا يمكن أن تستمر الحياة بدونه.

فالإنسان اجتماعي بطبعه الفطري وتكوين الجماعة إنما يأتي من تألف أفراد مجتمع، – تجمعهم خ صائص معينة دعت إلى و صفهم بالجماعة، وعلى هذا يكون مذ شأ الأمة على أنها حقيقة اجتماعية وتاريخية قائمة وفق نظام تعاوني تربطه أسس وتشد أواصره مصالح، وتقوم على عوامل مشتركة من وحدة اللغة والأرض والتراث والوجود والمصير.

فكيف تنشأ القومية من الجماعة؟ وما هي الروابط التي تشكل قومية لدى أفراد الجماعة الواحدة؟، وما هي القضايا التي تكون العنا صر القومية لدى المجتمع الواحد؟ أن العلاقات التي تربط الجماعة وتتكون منها القومية هي علاقات الروابط المادية والمعنوية تقوم بين أبنائها في مواجهة الحياة على الصعيد الاجتماعي والفكري الذي يؤدي إلى وحدة المصير في إدراك المحيط الخارجي، وما ينجم عن ذلك من صـــراعات بين هؤلاء الأفراد وبين العوامل الخارجية يولد نوعا من الوعي المشـــترك في فهم الأهداف من أجل اســـتمرار الحياة. فلا يمكن أن نقول أن القومية هي مرحلة عارضة في حياة البشر تفرضها ظروف معينة حتى تزول بزوال تلك الظروف. ذلك أن قضايا التي تعالجها إنما قضايا تهم جميع الأفراد، وهذه القضايا لا تقوم على أساس مرحلي، إنما على أساس وجودي، لأنها مرت بمراحل أصبحت حصيلة عامة في الوعي الجمعي، لما بينها من روابط مختلفة وعلاقات متينة، والســـبب في ترابط هذه العلاقة أنها ليســـت وليدة مرحلة تاريخية أفرزتها عوامل سياسية أو اقتصادية، وإنما على العكس تماماً، فهي التي تبني الأسس الاقتصادية وتضع النظريات السياسية وفق منظورها القومي، وكذلك يمكن القول أن وسائل الإنتاج أو رأس المال لا يمكن أن يصنع أمة لها قوميتها تتمتع بخصائص معينة، لأن هذه الأسباب أساسا هي نتاج الجماعة التي أخذت الصفة القومية قبل وسائل الإنتاج ورأس المال حيث يقول **محمد المكنا**:" إذ هنا نصطدم إن لم نقل ننسف التفسير **الماركسي** للتاريخ والذي يقول أن التاريخ يحركه الاقتصاد، طبعا لا يمكن أن يكون الاقتصاد هو المحرك للإنسانية كلها بحروبها و صراعاتها وثوراتها وتفاعلاتها ومن الخطأ أن يُشطب على الاقتصاد نهائيا كعامل من العوامل في حياة الإنسان، ويشطب عليه لأن **ماركس** تعلل به، هذا يبدو تعصبا

يؤدي إلى الخطأ، ونحن نعتبر العامل الاقتصادي من ضمن العوامل التي تدخل في حياة الإنسانية، لكن لا يمكن أن يكون العامل الأول أبداً"[24]. فاختراع المحراث وابتكار العجلة الذي أدى إلى نوع من زيادة الإنتاج في حينه، كان نابعاً عن وجود الجماعة التي رأت أن الحاجة تدفعها إلى التطوير.

والقومية التي تتصف بها أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات لا يمكن أن تزول بزوال الأمور العارضة في حياتها، والتي أدت إلى نوع من تراخي تلك الروابط التي تجمعها في مرحلة تاريخية معينة، لأن القومية أصبحت في وعي الأمة قيمة معنوية وروحية لا يمكن أن تفقد تلك الخصائص مهما جرى عليها من مؤثرات:" حيث أن القومية صورة من صور الوعي التاريخي للأمة، لهذا فإن لها سمة من سمات الوجود المتحرك، أي أن القومية النابعة من الوعي والمرتبطة ارتباطها ارتباطاً عضوياً وجوهرياً بإدارة الأمة، هي مبدأ أساسي وجوهري في حركة الأمة وفي وجودها"[25].

وهذا يعني أن الرابطة القومية قد اكتسبت خصائص جوهرية غير رابطة العرق أو الدم، في الآمال والآلام والتكوين النفسي وحب الفداء والتضحية من أجل القوم، وهذا هو العامل المعنوي والروحي الذي يربط أبناء القومية الواحدة بالإضافة للعوامل المادية الأخرى كالمصالح الاقتصادية، وهذا ما ندعوه بالانتماء الحقيقي من خلال الشعور بوحدة المصير ضمن القومية.

وهذا ما يفسر لنا حقيقة الانتماء إلى القومية، أي أن هناك عوامل أخرى غير العرق والدم والأصل، تدفع الإنسان إلى الانتماء، منها عوامل داخلية تكمن في ذات الأمة أو القومية، مثل اللغة والدين والثقافة والمعرفة التي اكتسبها الفرد ضمن الجماعة، وعوامل خارجية تدفعه إلى الانتماء وذلك عندما تتعارض مواقفه ومصالحه وفكره مع قومية

24 – رجب ابودبوس، ثأر اجتماعي، مرجع سابق، ص22.
25 - فؤاد الركابي، القومية حركتها ومحتواها، دار الكتاب العربي المصرية، القاهرة، 1963م، ص65.

أخرى:" فعامل وحدة الأصـــل رغم أهميته لا يكفي وحده وإنما يجب النظر إليه في إطار مجموعة العوامل الأخرى التي امتزج معها عبر مراحل التاريخ"[26].

إن عوامل الـ صراع التي واجهها الإنـ سان في مـ سيرة الحياة البـ شرية، من قوة التحدي المـ ضاد المتمثلة في العوامل الخارجية كانت تحـ سم دائما لـ صالح الإنـ سان، لأنه قادر على مواجهة التحديات، وبالتالي كان يتغلب عليها بعاملين أساسيين هما:

الأول: إنه مخلوق قادر على التفكير وإيجاد الحلول واستخراج البدائل في مواجهة التحديات الخارجية.

الثاني: أن تلك المواقف كانت تصدر – عبر التاريخ عن عمل جماعي لا يمكن أن يقوم به فرد مستقل – تشكل من خلاله أمة معينة تأخذ الصفة القومية.

وعلى هذا كانت تقوم الحـ ضارات الإنـ سانية وتنـ سب إلى صانعيها على أنهم جماعة ينتمون إلى قومية، بصـــرف النظر عن حجم تلك القومية كبيرة كانت أم صـــغيرة، وإنما الذي يهمنا أن هذا الحدث التاريخي أخذ الصفة القومية من تلك الجماعة، ولهذا أطلقنا على الحـ ضارات التي نـ شأت عبر التاريخ أسماء الأقوام الذين صنعوا تلك الحـ ضارات، ولهذا نقول: الحـ ضارة الهندية، والحـ ضارة الـ صينية، والحـ ضارة العربية، والحـ ضارة الإغريقية، والحـ ضارة الرومانية،...الخ ونلخص من هذا إلى أن العلاقات الاجتماعية هي التي كونت المفهوم القومي الذي ظهر أثره في تاريخ الحـ ضارات البـ شرية، وبذلك لا نـ ستبعد العامل القومي في حركة الـ تاريخ لأن العلاقة القومية هي نفســـها العلاقة الاجتماعية إذ أن المجموعة البشـــرية هي قوم، وبذلك تربطهم علاقة قومية، وهذا يعني أن العامل القومي أكثر شمولية من العامل الاجتماعي، بل أن هذا الأخير يـ ضوي داخله ويوظف ضمن ماهياته.

والعلاقات الدائمة بين أفراد الجماعة هي علاقات قومية وفق متطلباتها، لذلك حافظت على تلك العلاقات التي نتج عنها ردة فعل اتجاه التحديات الخارجية المتمثلة في الواقع،

---

[26] – سليمان صالح الغويل، الدولة القومية، ط6، المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1977م، ص145.

فامتزج الفرد في المجتمع وتفاعل معه كما تفاعل مع البيئة والطبيعة وفق معيار زمني حتى نتجت عنه قومية كانت أحد العوامل المحركة للتاريخ، وبما أن هذه القومية تحمل مثلاً وأخلاقاً وقيماً محددة فإن الفرد تفاعل مع هذه القيم القومية التي عبرت عنها بالقيم الحضارية في حركة التاريخ، وهذا التفاعل أشبه ما يكون بتفاعل الإنسان وتلاؤمه مع اللحظة الراهنة من عمره، تفاعلاً يضيف به الجديد ويتجاوز به غير الملائم من مواريثه، وفق المعايير التي هي ثوابته، وأصالته وهويته، إنها الهوية المتميزة والأصالة المتميزة، تتجلى في طور جديد[27].

إذن إن التفاعل بين أفراد المجتمع يعطي هذا المجتمع خصوصية معينة ومعايير ثابتة ومفاهيم مشتركة تتجلى بوضوح كلما زادت نسبة التفاعل الذي يوصل جميع القيم النابعة من وجدان المجتمع الذي تظهر في قدرته على المطاولة في حركة التاريخ، الأمر الذي يعطي الهوية القومية لهذا المجتمع وذلك بقدر ما يترك من أثر حضاري في المجال التاريخي من نظم وقوانين وعلوم في جميع مجالات المعرفة ويطور فيها شكله القومي لأن نمط تنظيم وحياة المجتمعات الإنسانية عبر العصور التاريخية تطور شكل الظاهرة القومية حتى أضحت أهم القوى العاطفية و شكلت أخطر وأوسع التيارات السياسية في العصر الحديث[28].

إن القومية وإن كانت تعبيراً معنوياً، فهو يطلق على أمة معينة، ولكنه كائن حي ينمو ويترعرع، حتى يأخذ الشكل النهائي في مفهومه الحديث، حيث أن القومية كانت شعوراً وجدانياً داخل الجماعة الواحدة، ثم مرت بتطورات اجتماعية وتنظيمية تحمل مضامين وقيم وأخلاق ومفاهيم شكلت النواة الأولى ثم انتقل الوعي الجمعي إلى مفهوم الأمة التي تعبر عن القومية في كيان مستقل و شخصية حضارية متميزة لدى المجتمعات الإنسانية التي أظهرت السيادة القومية على أرض أو رقعة جغرافية، عرفت بالسيادة القومية، والذي نشأ عنه الصراع القومي فيما بعد، وكان التنافس من أجل المصالح القومية، إنما كان

---

[27] – محمد عمارة، أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة، ص26.

[28] – سليمان صالح الغويل، القومية وتنظيم الجماعة للدولة، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1991، ص51.

عاملاً مضافاً إلى حركة التاريخ في الصراع الحضاري القائم بين مختلف القوميات، ونحن ننظر إليه على أنه عامل إيجابي يغني التجربة البشـــرية في التطور الحضـــاري كمحرك للتاريخ لأن تنوعات الإن سان إلى سلالات وع شائر وأقوام وفي شعاب أرض، يجب أن يفهم، ويفهم في حدود التنوع الذي لا يخل بأســـاس الوحدة الإنســـانية التي تطبع الجميع بطوابع معينة من خصائص الإنسانية ومقوماتها(29).

إن هذا النوع من السلالات البشرية، ضمن شعاب أرض أو بيئة اجتماعية، يكسب المجتمع خصائص معنوية وفكرية واجتماعية تشكل فهما معينا تكون أساسا لمنطلقات قومية، لهذا المجتمع البشـــري أو ذاك، وفهم هذا التنوع أو الاختلاف القومي في تفســـير الظواهر الإنسانية والحضارية هو الاعتراف بالتعدد القومي، لأن لكل أمة فلسفتها في الحياة وقيمها وأخلاقها ومفاهيمها في التعبير عن شخصيتها القومية، وهذه الاختلافات هي عامل إيجابي يصب في خدمة الإنسانية(30)، ذلك الاختلاف في النظرة والمفهوم والتفسير الأخلاقي للقيم واختلافه من قوم إلى قوم ومن أمة إلى أمة أخرى، هو الذي يحفز الإنســـان على طلب المزيد من المعرفة من أجل إثبات أو نفي ما هو صادر عن فكر قومي آخر سواء أكان ذلك في العلوم الإنسانية و الفكرية أم في العلوم الصرفة التي تنصب على الجانب المادي كالطب والزراعة والهندسة وما له علاقة بتطور البشرية وحضارتها لذلك يقول **الغويل:**" الأمم الراقية والمتحضرة والمتقدمة مفيدة للبشرية جمعاء"(31).

وهنا يدخل الصـــراع القومي الذي يأخذ الجانب الإيجابي في مفهوم الصـــراع كعامل محرك للتاريخ، ذلك أن الأمة التي تعبر عن قومية معينة، عندما تتقدم حضـــارياً، فإنها بالتأكيد سوف تخدم نفسها وأبناءها على الصعيد المادي والمعنوي والروحي، فعلى الصعيد المادي يكون ازدهار العلوم الذي ينعكس على تطور وســـائل الإنتاج، وبالتالي فإن زيادة الإنتاج تؤدي إلى رفاهية المجتمع وتقدمه في مجالات الحياة المادية في الصناعة والزراعة والبناء والعمران التي تشكل الأسس الحضارية لهذه القومية، وأما في الجانب الآخر على

---

29 – إبراهيم الغويل، البعد القومي والديمقراطي بتأصيل عربي إسلامي، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1987م، ص15.

30 – قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، 1977م، ص61-62.

31 – إبراهيم بشير الغويل، مرجع سابق، ص 65.

الـ صعيد المعنوي فإنه ينمو نوع من الـ شعور والاعتزاز تجاه التقدم الحـ ضاري، لأن هذه القومية صنعت حـ ضارة مؤثرة في الحـ ضارة الإنـ سانية، فهذه القومية ليـ ست بمعزل عن الآخرين ذلك أن الأمم الأخرى إنما تدخل في تنافس حـ ضاري مع ما يجري على الـ ساحة الإنســـانية، في صـــراع حضـــاري يرتكز على العامل القومي من أجل اللحاق بالركب الحـضاري أو مجاراته، وبهذا الـصراع الدائم تـسير عجلة التاريخ ويكون الـصراع القومي الذي ينتمي إلى قومية معينة هو أحد العوامل المحركة للتاريخ، ذلك أن العناصـــر القومية تـ شكل حافزا على تمثل الموروثات الروحية والمادية، الآيلة إلى العـ صر الحا ضر، عبر تعاقب الأجيال، يغوص بعيداً في الزمن[32]، لأن القومية هي عبارة عن وعاء روحي و سجل يمتد عبر الزمن ويـ شكل حقيقة تاريخية نرى من خلالها التطور الذاتي في داخل كيان الأمة وســماتها ومقوماتها، حيث أن العناصـــر التي تجمع بين أفراد الأمة الواحدة، وتعطيها الصفة القومية التي ترسم لنفسها الشخصية القومية عبر التاريخ في حركته مضافاً إليها عوامل أخرى أن الدين والقومية فيما يثبته التاريخ، وفق ا ستقراء سيرة البـ شر دائماً نجد الدين والقومية با ستمرار يحركان التاريخ، يحركان الإنـ سان، يكونان الأمم، يرسمان الحدود بين البلدان، يتســببان في الحروب، وأغلب الحوادث الكبرى في العالم عادتا ما تكون أ سبابها الدين والقومية، بمعنى أن التاريخ يـ صنعه الدين والقومية، ويحركانه كذلك، ذلك أن الـسمات العامة لأي تجمع سوف يؤدي بالـضرورة إلى وحدة العنا صر التي تـشكل الهدف المشترك، فالدين واللغة والثقافة ووحدة المصير والمصالح المشتركة، تكون مقدمة لمقومات الحضارة القومية، إذ ليس الوجود القومي مرهون بالتطور الاقتصادي، وإنما هو رهين الوجود الاجتماعي، والـسبب في ذلك أن التطور الاقتـصادي الذي يحدث إنما بـسبب العوامل التي هيأها الوجود الاجتماعي كتعبير قومي عن المجتمع والتي تعبر عن نفســـها في شكل ازدهار اقتصادي وثقافي، وسياسي... الخ، و الظاهرة الحضارية التي نتجت عن ذلك المجتمع، إنما هي تعبير عن الوجود القومي، ويمكن أن نضـــرب مثلاً لنؤكد حقيقة وجود القومية بـ صرف النظر عن حجم مـ ساهمتها في الحـ ضارة الإنـ سانية في مرحلة من مراحل التاريخ، إذ ليس التطور الاقتصادي أو تراجعه هو الذي يأذن بمولد أمة أو بموتها،

[32] – عفيف دمشقية، تجربة العالم الثالث، معهد الانماء العربي، بيروت، 1981م، ص9.

فهناك أقوام كثيرة حافظت على بقائها على الرغم من التراجع الحضـــاري الذي مرت به في مرحلة تاريخية معينة، ولكن بقيت عناصر مهمة تجمع أواصر تلك القومية، فكانت تلك العنا صر والعوامل مدعاة للنهوض مرة أخرى، فاللغة تبقى لدى القوم مهما كان المـ ستوى الحضـــاري لتلك القومية، ومن خلال ما تحمل هذه اللغة من موروث في الثقافة والعلم والمعرفة والعنا صر المعنوية الأخرى التي تؤطر شخ صيتها وتميزها عن غيرها، ومن خلال الدخول في الصـــراع في دورة التاريخ الحضـــاري تظهر هذه العوامل ضـــمن خصوصيتها وشخصياتها القومية فيكون الإنسان في حركة التاريخ أداة حسم لصراع القوة فيه[33]، وخير دليل على أن القومية هي أحدى العوامل المحركة للتاريخ، وأنها تدخل ضمن الدورة الحـ ضارية على الـ صعيد الإنـ ساني وتقهر العامل الاقتـ صادي والنظرية السياسية وتتغلب عليها ما حدث في الاتحاد السوفيتي من انقسام إلى جمهوريات مستقلة، وكل أمة لها قوميتها، وعليه الاتحاد الـ سوفيتي يريد أن يثبت للبـ شرية، ويجعل في التاريخ أن القومية لا وجود لها، والدين لا وجود له، وكان الغرض من هذا التـ سويق للحفاظ على وحدته من الانقسام إلى قوميات.

وفعلا فأننا ونحن اليوم في القرن الواحد والعشرون قد رأينا الانقسامات التي حدثت في هذا الإقليم، وأن الأسباب التي تسببت في هذه الانقسامات، هي أسباب قومية، لأننا الآن في عصـــر القوميات في العالم، وقد بات واضـــحاً العامل القومي والدور الذي لعبه في هذه الدولة وقد صارت دويلات، كل دولة اـ ستقلت وأـ صبحت ذات كيان منفـ صل، ونؤكد من خلال هذا الطرح على أن الـصراع القومي أساس في حركة التاريخ والتي يجب أن تفسر بشكل عام وفقاً للتأكيد بأن العامل القومي هو العامل الاجتماعي.

- **رابعاً: العامل الديني محرك للتاريخ:**

إن التجمعات البـ شرية التي تنمو في بيئة اجتماعية وتجمع بينها عنا صر وعوامل تـ شكل أســـس الروابط القومية فيما بين أفرادها كتعبير على وحدة الانتماء للجماعة التي ارتبطت

[33] – جمعة المهدي الفزاني، الاختيار القومي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والأعلان ، طرابلس، 1982م، ص25.

بأهداف ومصالح ومصير في الوجود، لابد أن تتوج هذه العلاقات برابطة وثيقة تشد أواصر هذه الوحدة الاجتماعية في التعبير أيضـــاً عن الانتماء إلى وحدة روحية عمادها العقيدة الذي تتمثل في الدين الذي يشكل عاملاً أساسياً مضافاً إلى العامل القومي مؤثراً في حركة التاريخ، ذلك أن الإيمان بالمعتقد يملأ الفراغ الروحي لدى المجتمع، حيث أن الإنسان في طبيعة تكوينه ومن أجل الاستمرار في الحياة ومواجهة التحديات التي يدخل معها في صراع من أجل إثبات الوجود على صعيد الفرد والمجتمع، فهو بالضرورة محتاج إلى **ثلاثة عوامل رئيسة هي:**

1- **الجانب المادي:** الذي يشبع حاجاته في المأكل والملبس والمسكن، وما يترتب على هذه الأشياء من حاجيات ضرورية تؤمن له سبل العيش وتدفع عنه الأخطار المهددة لوجوده.
2- **الجانب الفكري:** الذي ينصـــب على الاهتمامات المعرفية والعلمية والثقافية، وما ينتج عنها من تجارب يسخر بعضها في خدمة الجانب المادي، ويكون قسم منها بمثابة غذاء للعقل، كالفنون، والثقافة، والفلسفة، والمعرفة بجميع أشكالها وأنواعها.
3- **الجانب الروحي:** وهو ما يشبع متطلبات الروح والنفس في المعتقد الذي يشكل جذوة الإيمان الذي ينير به عقله وتتوسع به مداركه وتسمو به روحه، إذ لا يمكن أن يشبع هذه الرغبة الضرورية إلا من خلال الدين الذي يعتبر أسمى المقدسات وأعلاها على الإطلاق، لما يشعر به من نشوة روحية يجسدها الدين والمعتقد في النفس الإنسانية.

وبناءً على هذا، فإن الدين مسألة أساسية في حياة الإنسان – فرداً أو مجتمعاً – لما له من صـــلة جوهرية في تكوين العلاقة وتنظيمها بين الإنســـان وخالقه من جانب، وبين الإنســـان ومحيطه الخارجي – أفراداً وجماعات وبيئة – من جانب آخر.

حيث أن هذه العلاقة كلما كانت متينة انعكس ذلك على المجتمع إيجابياً، لأن الدين يمثل مجموعة القيم والمثل العليا، لا يمكن أن ترغب الروح عنها، فهي تمثلها وتضـــحي من أجلها لقداستها أولاً، ومن ثم لأنها تشبع الرغبات الروحية ثانياً، إن استقراء التاريخ بوضوح جلي يجعلنا نقف على أمر مهم جداً، وهو أن معظم الجماعات التي ينشب بينها النزاع والصراع، ويذب بينها الخلاف، غالبا ما يكون ناتجا عن الفراغ الديني، أو ضـــعف الجانب الروحي في المعتقد الإيماني، أو لعدم انتظامهم في دين واحد.

وفي الواقع أن الدين مـ صدر ثقافة روحية يؤدي إلى الـ سكينة والاطمئنان الذي يمنح حـ سن التـ صرف ورجاحة العقل في أ شد الأزمات، وهو مع هذا يكون حافزا ومؤثرا في إرادة الفرد والمجتمع، ومن هنا يدخل عاملا محركا للتاريخ، والدين "هو معتقد يعتنقه الإنســـان والمجتمع طواعية، ويتقبل القواعد المستمدة منه ولا يرى فيها حيفا ولا عسفا ويعتبر مصدراً أساسيا من مصادر التشريع، فشريعة المجتمع المستندة إلى العرف والدين هي التعبير الحقيقي عن الحياة، باعتبارها تراثا إنـ سانيا خالدا، ليس ملكا للأحياء فقط، ولم تكن محل صياغة أو تأليف من أي فئة في المجتمع دون أخرى"[34]، ومن هذا التعريف يمكن أن ننطلق إلى فلســـفة هذه الأفكار التي جاء بها تعريف الدين حتى نصـــل إلى الدوافع التي تكمن في الدين كعقيدة إيمانية تنمي الشعور الإنساني اتجاه مقدساته لتكون صاحبة دور كبير في صناعة التاريخ، إذ أن الاعتناق لا يكون إلا لما له من قد سية خا صة في النفس البـ شرية تـ سمو عن جميع الموجودات المادية الحســـية، أو الشـــعورية الادراكية، وبهذا يكون لوقعها في نفوس المجتمع مكان الصـــدارة، وعندما يكون هذا الاعتقاد طواعية، فهذا يعني أنه تمســـك به محبة دون مؤثر خارجي، وهذا أ سمى أنواع الاعتقاد الذي يـ سود من خلاله علاقات طبيعية بين الأفراد وتكون مدعاة للتسامح والمحبة، وعندما تتزعزع هذه العلاقة أو تتراخى فإن الأمر سيؤدي إلى تدهور المجتمع و ستكون النتائج السلبية هي حـ صيلة هذا التراخي وانقطاع العلاقة الدينية في المجتمع الواحد، وبهذا يكون الدين عاملا في حركة التاريخ بالاتجاه الســـلبي، فلكي يبقى المجتمع متماســـكا وتتطور فيه حياة الجماعة بانتعاش، فإن القاعدة المنطقية تؤكد أن لكل أمة دين، والخلاف بين الجماعات البـ شرية قد يحدث، وليس هناك من مجال سوء الاذ سجام والتعايش، حتى تستقر الحياة ويعم السلام بين الشعوب.

ونحن في بحثنا هذا نأخذ جانبا واحدا مما له علاقة بموضـــوع بحثنا هو كيف يكون الدين عاملاً محركا للتاريخ؟، إذ أن العلاقات الأخرى التي لها صلة بالمجتمع كأفراد، مثل العبادات، والعقائد، والفرائض، والأحوال الـ شخـ صية، وما إلى ذلك ليـ ست مجال بحثنا، غير أنه لابد من الإشارة هنا إلى أن هذه الجزئيات لها أثر أيضا فيما نتناوله في هذا البحث، ولكننا نصب معظم اهتمامنا على القـ ضايا الكلية، وما ينجم عن ذلك في دورة الزمن في حياة المجتمع، وما ر سخ

[34] – محمد الحضيري وآخرون، مرجع سابق، ص172.

في الوعي الجمعي للمجتمع من أثر الدين والعقيدة، حيث يبقى المجتمع متم سكا بدينه رغم كل التحديات، حيث يطالعنا التاريخ بموقف أبرهة الحبشـــي تجاه العرب وقبلتهم، وكيف أراد أن يـ صرف العرب عن الكعبة، ثم أن أبرهة بنى القليس بـ صنعاء، فبنى كنيـ سة لم ير مثلها في زمانها بـ شيء من الأرض، ثم كتب إلى النجا شي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيـ سة لم يبنى مثلها لملك كان قبلك، ولـ ست بمنته حتى أ صرف إليها حج العرب[35]، وهنا تظهر قوة العامل الديني في حركة التاريخ من حيث الفعل ورد الفعل، إذ أن أبرهة أراد أن يجعل العرب يتوجهون بحجهم إلى الكنيســـة التي بناها بدافع العامل الديني، ولما لم يتحقق له ما أراد من رغبته في ذلك حركه العامل الديني إلى التفكير بهدم الكعبة المشـــرفة من أجل أن يحقق غرضـــه، ولما وصـــل خبر جيش أبرهة إلى مكة "انصـــرف عبدالمطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والـ شعاب تخوفا عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة".

لا هم إن العبد يمنع رحلة فاجنح حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوا محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك"[36].

وقد أرســـل الله تعالى طيراً أبابيلاً على أبرهة وجيشـــه فأهلكه وعرفت هذه الحادثة لدى المؤرخين بعام الفيل في السنة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وثق القرآن الكريم هذه المرحلة الفا صلة في تاريخ العرب بقوله تعالى:(ألم تر كيف فعل ربك بأ صحاب الفيل)[37]، وكانت هذه الحادثة التاريخية مرحلة فاصـــلة في تاريخ الأمة العربية في الجاهلية، حيث كانت نهاية الأحباش في الجزيرة العربية واليمن، وبدء مرحلة تاريخية جديدة كان المحرك الأول فيها هو العامل الديني، وإذا تتبعنا هذه المرحلة إلى البعثة النبوية، يظهر لنا أثر

---

35 – السيرة النبوية لأبن هشام، حققها وخططها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وآخرون، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1955م، ص43.

36– السيرة النبوية، مصطفى السقا وآخرون، مصدر سابق، ص51.

37 – سورة الفيل، الآية"1".

العامل الديني بجلاء ووضـــوح في حركة التاريخ على حياة الأمة العربية من جانب، وعلى الحياة بـ شكل عام من جانب آخر، حيث أن فتح مكة يعتبر من أهم الأحداث التاريخية في حياة المســـلمين، لأنه أذن بعوامل جديدة في توحيد العرب وانضـــوائهم تحت راية واحدة ومن ثم الانطلاق إلى حرب الفتوح لتحرير العراق والـ شام ومـ صر، ومنها إلى المغرب العربي، وبعد ذلك الانتقال إلى الأندلس.

إن الدين يملأ الفراغ الروحي لدى الأمة ويعطيها المثل والقيم العليا التي يتقبلها المجتمع و سواء أكان هذا الدين دين توحيد يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، أم كان دين شرك يدخله كثير من الخرافات والأساطير والسحر، ومع هذا يأخذ من النفوس مكان القداسة، وهذه الدراسة لـست بـصدد تفسير الظواهر الدينية، وإنما تحاول إلقاء الـضوء على أثر الدين ظاهرة في حياة المجتمع تؤدي إلى تغيير الحياة العامة باتجاهاتها الاجتماعية والاقتـصادية والفكرية والـسيا سية على نحو ما تســـطر تاريخاً جديداً وفق المنطلقات الدينية كعامل مســـاعد في حركة التاريخ تماشـــياً مع ما جاء في بعض الكتابات التاريخية حول الدين والمجتمع كما أن هذا البحث لن يتناول الفلسفات الدينية، أو صراع الأديان توحيدية سماوية أو وضعية سحرية وأسطورية، أو المنطلقات الدينية والمدلولات التوحيدية التي تنظم قوانين العلاقات بين العابد والمعبود، وبين المؤمن وربه، إنما تأخذ مجال الدرا سات الفقهية ضمن تخـصـصات علم الـ شرائع واللاهوت، كذلك علاقة الدين بالنظريات الـسيا سية كالماركـسية المادية، أو الليبرالية الرأسمالية، وما ينتج عن هذه العلاقات من مواقف تؤدي إلى التشدد الديني لدى البعض، أو إلى التراخي حتى يصل حد التســـيب والابتعاد لدى البعض الآخر، وقد عبر عن ذلك المفكر الكبير **روجيه غارودي** بقوله:" وقد غدا الإله في الرأســـمالية هو المال. العجل الذهبي، وغدت المادية الجدلية في الاشـــتراكية نوعا من ذي عقيدة مقدســـة وصـــار الحزب بديلاً عن الله في نوع من لاهوت علماني"[38].

إن ما يهمنا في هذا المجال أثر العامل الديني في حركة التاريخ، إذ أننا نجد دائماً إن التاريخ يشكله صراعات دينية وقومية، وكذلك هناك عوامل أخرى تدخل في هذه الـصراعات، ولكنها

[38] – روجيه غارودي، حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، 1982م، ص199.

صغيرة، مثل الصراع الاقتصادي والجغرافي والنفسي وغيرها، والتي تقريباً لا تشكل المحرك الحقيقي للتاريخ بدرجة كبيرة كما هو الحال في الدين والقومية.

- **فكيف يشكل الدين هذا الصراع ويغير وجه التاريخ؟**

إن رؤيتي المتواضـــعة للعامل الديني كمحرك للتاريخ، تتمثل في كثرة الأمثلة والشـــواهد التاريخية في هذا المجال، وهي أكثر من أن تحصي، ولكن سوف اقتصر على بعضها بما يؤدي الغرض ونسوق له البرهان:

من المعروف إن **(الظاهر بيبرس)** كان قائداً لجيوش الملك **(المظفر قطز)**، و**بيبرس** لم يكن عربياً، وإنما كان رجلاً مســـلماً، وفي هذه الأثناء اجتاحت جيوش المغول الدولة العربية الإسلامية وا سقطت بغداد سنة 1256م وتقدمت إلى سوريا وفلسطين، وكان **بيبرس** قائداً للجيش، وحين استشعر الخطر، وبدافع ديني:" ومن هذا الموقع تقدم بيبرس ذو البأس الشديد والقلب الذي لا يرحم في خطى ســـريعة إلى قيادة الجيش، وفي منصـــبه الجديد هذا كان هو العامل الرئيسي في إيقاع الهزيمة بالمغول الذين اجتاحوا فارس و سوريا بقيادة هولاكو"[39]، فهذا النص هو شهادة أحد المؤرخين الغربيين، ومن المعروف أن معظم المستشرقين، ولا نقول جميعهم، إنما يقولون نصف الحقيقة، لأن الظاهر بيبرس بعد أن هزم المغول في معركة عين جالوت دعا للعباسيين بالخلافة، وهذا هو أثر العامل الديني، ذلك أن هذا المؤرخ نفسه يعود فيقول:" بالإضافة إلى إيقاع الهزيمة بالمغول، يتعين علينا أن نقر بأنه صاحب الفضل في القضاء على الخطر الصليبي الحقيقي في سورية"[40] ، ومن المعروف أن الحروب الصليبية لم تكن إلا حروب دينية، عملت الكنيسة على إذكاء الروح الدينية واستخدام هذا العامل كمحرك للشعور الروحي والديني في أوروبا وتوجيه الحملات الصليبية إلى الشرق التي أقامت إمارات وقلاع وحصون في أنطاكيا والرها وعكة[41]، ثم استولت بعد ذلك على بيت المقدس حيث أنه :" في أواخر الألف الأولى من الميلاد عم المسيحيين في أوروبا اعتقاد بأن يوم القيامة سيحل في آخر يوم من سنة 999م و سيتدمر العالم عن آخره، وقد تولت البابوية ورجال الكنيسة

39– روم لاندو، الإسلام والعرب، نقله إلى العربية منير البعلبكي، دار الملايين، بيروت، 1977م، ص99.

40 – روم لاندو، الإسلام والعرب، المرجع السابق نفسه، ص99.

41 – تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الافرنج، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ص83-84-85.

تأكيدهم هذا الاعتقاد لدى العامة، الذين اندفعوا للصـــلاة والعبادة والتبرع بأموالهم وأملاكهم للكرسي البابوي والكنيسي تقربا من الله، وتزايدت بسبب ذلك ثروة البابا ورجال الدين تزايدا هائلا، وقد فكر **سلفستر** الثاني الذي كان على الكرسي البابوي آنذاك في استغلال هذا الورع الديني المفاجئ الذي حل بالمسيحيين الأوروبيين بتنظيم حملات صليبية ضد المسلمين في الأندلس وبلاد الشام"[42]، وقد تنامى هذا العامل فيما بعد وتوالت الحملات الصليبية على بلاد المسلمين، وظهرت فريضة الحج إلى بيت المقدس في ذلك الوقت، علما أنها لم تنص الديانة المسيحية على الحج إلى القدس، وهو غير موجود في الأسفار المقدسة، أو الإنجيل، ولكن الكنيســـة ابتدعت هذا الأمر من أجل إذكاء العامل الديني وتحريض المجتمع الأوروبي على غزو الشرق، وما كان هذا إلا بسبب العامل الديني الذي كان صاحب الدور الكبير في حركة التاريخ وتبدل مراحله وتغيير الخارطة السياسية بشكل متسارع بين فترة وأخرى في ذلك العصر. وهكذا نجد أن العامل الديني كان له الأثر الكبير في حركة التاريخ وصياغة الأحداث الكبرى، ونحن أمة أكرمها الله بهذا الدين الذي يحوي من الفضائل ما لا يحصى وما له من أثر في حياة الأمة والمجتمع ولذلك جعلنا من القرآن الكريم دستورنا وشريعتنا التي ننهج منها وننظم علاقاتنا الإنسانية والروحية ونضع الأسس المتينة للرابطة الاجتماعية فيما بيننا، والذي كان له الأثر في تاريخنا، وهذه المعطيات كانت الأســـس واللبنات التي تكونت من نســـيجها الرابطة الاجتماعية، أو الوحدة الاجتماعية، فكان أداتها اللسان العربي، ووعائها القوم الناطقون به، ومحتواها منظومة القيم والقوانين والتفاســـير الشـــمولية للكون والحياة التي ضـــمنها الله سبحانه وتعالى الوحي الموحى إلى النبي العربي بلسان عربي مبين[43].

إن أثر العامل الديني كمحرك للتاريخ لا يقتصـــر على مرحلة دون أخرى، أو على فترة زمنية محددة، أو أمة من الأمم دون غيرها، وإنما هو ملازم للتجمع البشـــري في كل زمان ومكان، وهذا يعني أنه يصـــاحب القومية التي تنبع من المجتمع، لأن الدين والقومية عاملان متلازمان في حياة البشرية، ولكي نتجنب حدوث الحروب يجب علينا احترام الأديان وقدسيتها،

---

[42] – تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الافرنج، المرجع السابق نفسه، ص47.

[43] – ندوة التيارات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، منشورات رسالة الجهاد، طرابلس، 1987م، ص320.

أي أن لا نمس، أو نسئ لدين أي أحد، لأن المساس بالدين هو بمثابة اعتداء على المقدسات، ولما كان الدين يشـــمل عقيدة أفراد كثيرين يتكون منهم مجتمع ينتمي إلى قومية معينة، فهنا يصبح الأمر في مواجهة مع قومية تعتنق هذا الدين، فلابد من الدخول في صراع بين طرفي المعادلة، وهذا الصراع لا يعني بالضرورة اعتداء أحد الطرفين على الأخر، وإنما قد يكون صراعا منطلقة استشعار الخطر المحدق من خلال رؤية مستقبلية تتعلق بحياة أفراد المجتمع وحياة الإنسان، من جانب، وتهدد وجوده كمؤسسة اجتماعية لا وجودها العقائدي المتمثل في الجانب القومي من جانب آخر ومن ثم، فما يحدث من تغيرات في عملية المواجهة، أو الصراع يترتب على ذلك تغيرات وتبدلات اجتماعية كثيرة ضمن وعائها الزمني وعلى الرقعة الجغرافية التي يشغلها هذا الصراع، الذي سوف ينجم عنه نتائج تاريخية تظهر دلالاتها المادية والمعنوية على طرفي المعادلة اللذين دخلا هذا الصـــراع، وهنا يتضـــح لنا أثر العامل الديني ودوره في حركة التاريخ لأن تاريخ الإنسان عبارة عن حركة للدين والقومية، والصراع من أجل الدين والقومية، فإن الدين عامل أساسي في حياة البشرية، وكذلك القومية عامل مهم في حياة الإنسان.

إن المجتمع لم يكن ليتشكل من تلقاء نفسه أو بشكل عابر، وإنما أي مجتمع عندما يتشكل، إنما يكون هذا الوجود الشكلي بفعل عوامل خارجية، ومن البديهي أن يبحث عن أسباب البقاء الوجودي كونه يسعى إلى غاية محددة يعبر عنها من خلال سمات معينة يتصف بها، أو يتأثر بها، والتأثير يأخذ اتجاهين إما أن يكون تعبيراً عن القبول والرضا لتجربة إنسانية في مجتمع بشري مجاور لهذا المجتمع فيتأثر به ويقلده ويتقمص تجربته تحت ظرف معين، أو عامل من العوامل، أو عن طريق الاحتكاك والتعامل، وأهم هذه العوامل في حركة التاريخ هي الدين والقومية، إذ من المعلوم أن جنوب شرق آسيا لم تصل إليها الفتوحات الإسلامية، إنما دخلها الإسلام عن طريق التجار المسلمون الذين كانوا يصلون إلى تلك البلاد، حيث أن العامل الديني جعل من اندونيسيا أكبر دولة مسلمة وبدخول الإسلام إلى اندونيسيا وماليزيا غير مجرى أحداث التاريخ في تلك البلاد، وعلى العكس من هذا فإن عامل التنافر في المجتمع أدى إلى قيام دولتي الهند والباكستان، وهنا إشارة إلى أهمية الدين في حياة الأمم وتغيير لوجه التاريخ.

وأنا هنا لا أريد أن أحصي تجارب الأمم في التاريخ الإنساني، وإنما استطيع أن أقول إن العوامل السياسية التي تحرك التاريخ وتؤثر في حياة البشرية هما الدين والقومية وكلاهما مرتبط بالعامل الاجتماعي :"وما دامت قراءة التاريخ بينت أن الدين والقومية هما اللذان يحركان التاريخ، إذاً علينا أن نقف أمام القومية والدين ونحترم القومية ونقدس الدين"[44] ، ونتيجة لتفاعل العوامل التي تحكم المجتمع أو أن المجتمع يتمسك بها وليس هناك أقوى من العامل القومي والعامل الديني الذي يحكم المجتمع وفق رؤية محددة، وهذ يسحب على جميع المجتمعات الإنسانية كبيرة كانت أم صغيرة، ومن خلال هذين العاملين يتحدد تاريخ كل أمة وفق معطيات الدين والقومية بصرف النظر عن هذا الدين أو ذاك، أو هذه القومية أو تلك وهنا نتحدث عن القومية المطلقة وأي دين من الأديان.

الخاتمة:

ومما تقدم من خلال عرضنا من شواهد وأدلة تاريخية، يتضح لنا أن الإنسان إنما هو اجتماعي بطبعه ويتمتع بنظرة مستقبلية فرضت عليه الانصياع لمؤثرات وجد نفسه في داخل كيانها، أو لا يستطيع أن يستمر ككائن اجتماعي متفائل بالمستقبل دون هذه المؤثرات أو العوامل التي تكون أداة حسم في صناعة التاريخ وهو جزء لا يتجزأ منها، ماضيا وحاضرا ومستقبل.

44 – رأي في القضايا العالمية، ندوة فكرية في باريس، مطابع الثورة العربية، بتاريخ 24 نوفمبر 1973م، ص9.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1- القرآن الكريم.

2- عبدالرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، منشورات مؤسسة الإعلمي للمطبوعات، بيروت، 2001م.

3- رجب أبودبوس، ثأر اجتماعي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 2001م.

4- أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، دار الثقافة، بيروت، د. ت.

5- نيقولو ميكافيلي، مطارحات ميكافيلي، تعريب خيري حماد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982م.

6- ارنولد تونيي، الوحدة العربية آتية، نقله إلى العربية عمر الديراوي، دار الأدب، بيروت، 1979م.

7- مانتل أرنست، الرد الاشتراكي على التحدي الأمريكي، ترجمة نعيم الخوري، دار دمشق، دمشق، د. ت.

8- لينين، الرومانسية الاقتصادية، ترجمة لطفي فطيم، دار ابن خلدون، بيروت، 1975م.

9- ادوارم بيرتز، النظريات السياسية في العالم المعاصر، ترجمة عبدالكريم أحمد، دار الأدب، بيروت، 1988م.

10- بودوستيك وسيتيركين، المادية التاريخية، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م.

ثانياً: المراجع

11- نجاح صلاح الدين القابسي، التفسير الاجتماعي والتاريخ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1991م.

12- عبدالقادر تومي، أعلام الفلسفة الغربية في العصر الحديث، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

13- مجموعة باحثين، العامل الاجتماعي كمحرك للتاريخ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1991م.

14- ميلود المهدبي، إبراهيم أبوخزام، الوجيز في القانون الدستوري، منشورات مكتبة طرابلس العلمية، طرابلس، 1996م.

15- ادوارم بيرتز، الـ سيا سة في العالم المعا صر، ترجمة عبدالكريم أحمد، دار الادب، بيروت، 1988م.

16- إبراهيم أبوخزام، العوامل المحركة للتاريخ، المركز العالمي لدراســـات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1985م.

17- أحمد ولد الحســـن، الدين وتحرير الشـــعوب قراءة في الكتاب الخضـــر، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1989م.

ثالثا: الدوريات

18- جاك ليث، ولي مورتمر، أمريكا دولة تحكمها العصابات، ترجمة حبيب نحولي، دار الشرق الجديد، بيروت، 1954م.

19- محمد الحضـــيري وآخرون، المعجم الجماهيري، ط3، المركز العالمي لدراســـات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1425م.

20- فؤاد الركابي، القومية حركتها ومحتواها، دار الكتاب العربي المصرية، القاهرة، 1963م.

21- سليمان صالح الغويل، الدولة القومية، ط6، المركز العالمي للدرا سات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1977م.

22- محمد عمارة، أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة.

23- سليمان صالح الغويل، القومية وتنظيم الجماعة للدولة، المركز العالمي لدرا سات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، 1991م.

24- إبراهيم الغويل، البعد القومي والديمقراطي بتأصـــيل عربي إسلامي، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1987م.

25- قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، 1977م.

26- جمعة المهدي الفزاني، الاختيار القومي، المنشـــأة العامة للنشـــر والتوزيع والأعلان ، طرابلس، 1982م.

27- الـ سيرة النبوية لأبن هـ شام، حققها وخططها و شرحها وو ضع فهار سها م صطفى الـ سقا وآخرون، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1955م.

-28 روجيه غارودي، حوار الحضـــارات، ترجمة عادل العوا، منشـــورات عويدات، بيروت، 1982م.

-29 روم لا ند، الإســـلام والعرب، نقله إلى العربية منير البعلبكي، دار الملايين، بيروت، 1977م.

-30 تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الافرنج، الدار العربية للكتاب، القاهرة.

-31 ندوة التيارات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، منشورات رسالة الجهاد، طرابلس، 1987م.

-32 رأي في القضايا العالمية، ندوة فكرية في باريس، مطابع الثورة العربية، بتاريخ 24 نوفمبر 1973م.